

البدو

بقلم الدكتور رينهارت روزي المستشرق الهولندي

Dr. Reinhart P. A. Dozy

ترجمة النصل الاول من كتابه (تاريخ مسلمي الاندلس حتى استلاء المرابطين على الاندلس) (*)

HISTOIRE des MUSULMANS D' ESPAGNE

jusqu' à la conquête de l'Andalousie par les Almaracides

بينما تسير أوروبا قرناً بعد قرن في سبيل الترقى والتقدم فإن البقاء على وتيرة واحدة هو الصفة الغالبة ، والخاصة النابتة ، لذلك المدد الذي لا يحصى من القبائل التي تبهم بجيادها وأغنامها في صحراء بلاد العرب الفسيحة الجرداء . وكانت حالتهم بالامس كحالتهم اليوم ، وكذلك ستكون حالتهم في الغد ، ولا يزال البدوي يحتفظ بتلك الروح التي انبعثت في أجداده في أيام محمد (صلى الله عليه وسلم) بكل صفاتها وتقواتها . وأحسن شرح وتعليق على تاريخ عرب الجاهلية وشعرهم الاوصاف التي ذكرها السائحون من أهل العصر الحاضر عن عادات البدو وأحوالهم وأساليب تفكيرهم :

يبد أن هذا الشعب لا ينقصه الذكاء ولا النشاط اللازم لتמיד حدوده ، وتحسين أحواله ، اذا كان ذلك مطمحه ورغبته . واذا كان العربي واقعاً في مكانه لا يتقدم ، واذا كان لا يزال بعيداً عن فكرة التقدم نفسها ، فما ذلك الا لأنه لا يرغب في تغيير حظه وتبديل حاله ، لعدم اكترائه بلين العيش ورفاهته وبالم لذات المادية التي تجلبها الحضارة . و صلف البدوي يؤكد له أنه يتجسم فيه اكل و اتم نموذج للمخلوقات الكائنة ، فهو يحتقر غيره من الامم لجرد أنها ليست مثله . وهو يعتقد اعتقاداً راسخاً لا كفاء له بأنه أسعد حالاً

(*) نقلاً من (الفنون) يتصرف لفظي . ونحن نقصد من نقل هذا المقال وأمثاله أن يكون قراء العربية على علم بما يقال عنا ، ولو كان مانتله مخالفاً لرأينا وجهة نظرنا أحياناً

من الرجل المتحضر ، وان لكل حالة من حالات الحياة محاسنها ومساوئها . ولكن صلف البدوي من السهل فهمه ، فصدر ذلك انه لا يسترشد في حياته بمبادئ فلسفية ، وانما يستهدي بنوع من الغريزة ، وقد سار في حياته من أزمنة ضاربة في شماب القدم بشعار الثورة الفرنسية : « الحرية والمساواة والاخاء »

ولم يرث أحد على سطح الغبراء نصيباً أوفر من نصيب العربي في الحرية ولا قسطاً أعظم من قسطه ، فهو يفخر دائماً قائلاً : « لا اله الا الله » . والحرية التي يرتع في بحبوحتها لا تغلها سوى قيود قليلة ، حتى أن مبادئ متطرفي الاحرار تظهر الى جانبها كمبادئ استبدادية . والحكومة في أم الحضارة على أى شكل من أشكالها شيء لازم وشر لا يحصى عنه ، هي شر ولكنها شرط جوهري للخير . والبدوي يرى نفسه في غير حاجة اليها . والواقع أن لكل قبيلة رئيساً قد اختارته ذاتها ونفوذ ، فهو محترم المسكنة ويتخذ بنصائحه ، ولا سيما اذا كان مفوهاً حاضراً الخاطر ، ولكنه لا يملك حق إصدار أوامر . وهو لا يستفيد من رياسته مغنماً . وانما الامر على عكس ذلك : فهو مطالب - بل هو مرغم بالرأي العام - بأن يسد خلة الفقير ، وأن يقاسم أصحابه السكب الذي يناله ، وأن يكرم وفادة الغريب اكراماً أعم فيضاً وأكثر تفقة من اكرام سائر أبناء القبيلة . وهو مضطر في كل أمر الى أن يرجع الى مشاورة مجلس القبيلة المتكون من رؤساء العشائر . ولا يمكنه - بغير موافقة هذا المجلس - اشهار الحرب أو اجراء الصلح بل ولا نقل مضارب الخيام

ولقب « شيخ » الذي تمنحه القبيلة لأحد أبنائها هو في الحقيقة لقب أجوف ، وشهادة عامة للاحترام المنظور اليه به ، وهو اعتراف صوري بأن حامله أقدر القبيلة ، وأشجع أبنائها ، وأجودهم كفاً ، وأشدهم غيرة على مصالحها . وقد قال أحد قدماء العرب « نحن لا نمنح هذا اللقب لانسان الا

إذا قدم لنا كل ما يمتلك ، والا إذا رخص لنا في أن نطأ بأقدامنا كل عزيز عليه ، وأدى لنا كل الخدمات التي تنتظرها من خادم لنا ،

وسلطة الرئيس في الغالب من الضئولة بحيث لا يشمر بها . سأل معاوية مرة عرابة - الذي عاصر النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) - :
- بم سدت قومك ؟

فقال : - لست بسيدهم ، ولكنني رجل منهم
فمزم عليه معاوية . فقال عرابة :

- أعطيت في نأبتهم ، وحملت عن سفيهم ، وشددت على يدي حليمهم .
فن فعل منهم مثل فعلي فهو مثلي ، ومن قصر عنه فأنا أفضل منه ، ومن تجاوزه فهو أفضل مني ^(٢)

وكانت حالة البدو اذ ذاك كحالهم الآن : فقد كان في بعض الاوقات يعزل الرئيس اذا كان لا يستطيع الاحتفاظ بمركزه ، أو اذا وجد بين افراد قبيلته من هو اكثر منه إقداماً وأسعى كفاً

والمساواة المطلقة ولو أنها لا توجد في الصحراء ، الا أنها هناك قد وصلت الى حد لم تصل اليه في أي ناحية من النواحي . والبدو لا يعترفون بعدم

(١) عرابة - بوزن سحابة - هو ابن أوس بن قيطي بن عمرو بن زيد بن جشم بن حارثة . من بني مالك بن الاوس ، ثم من بني حارثة منهم . وهو من الانصار من أهل المدينة . قال ابن جبانة : له محبة . وقال ابن اسحاق : استصغره النبي صلى الله عليه وسلم والبراء بن عازب وغير واحد فردتهم يوم غزوة أحد

(٢) من الامثلة على كرم عرابة بن أوس وفضله أنه كان ذات يوم طائدا الى المدينة من سفره لجمع الطريق والشياخ بن ضرار المري الشاعر الصحابي فتحدثا . فقال له عرابة :
- ما الذي أقعدك ؟

قال الشياخ : - أردت أن أتنازلا معي
وكان مع الشياخ بيمان ، فأوقرها له عرابة برأ ونمرا ، وكساه وأكرمه . فخرج الشياخ من المدينة وامتدحه بالنصيحة التي يقول فيها :

وأبت عرابة الاوسي يسو
إذا ما رابة رفت لمجد
الى الخيرات منقطع القرين
تلقاها عرابة بالبحرين

المساواة في الروابط الاجتماعية لانهم يعيشون على نمط واحد ، ويلبسون أزياء واحدة ، و يأكلون طعاما متشابها . وليست حكومة الطبقة المتعمولة بالممكن تصورها عندهم ، لان المال في نظرهم لا يزيد الاحترام ولا يعلى المكانة . والمثل الاعلى عند الفارس العربي هو ازدهار الثروة والعيشة من اليد الى القم على الغنائم التي ينتزعها بشجاعته بعد ان يبذل مبرائه في الكرم واتلاف المال . واحتقار الغنى من غير شك دليل النخوة والشهامة والهدوء الفلاسفي : ولكن يلزم أن نراعي أن الثروة ليس لها أهمية عند البدوي كما لها عند غيره ، لان كل ما يمتلكه البدوي غير ثابت ولا مستقر ويتفقت من يده بحقة مدهشة . قال شاعر منهم :

أماوي ان المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
وهذا وصف صادق لحالة الصحراء

ولما كان البدوي يجهل الزراعة ولا يمتلك ذراعاً من الارض فثروته الوحيدة الابل والحمل ، وتلك أموال لا يعتمد عليها ساعة واحدة . لانه اذا هاجم الاعداء قبيلته وهو أمر يقع كل يوم فانهم ينتهبون كل ما يملك ، فيجد غني الامس نفسه فقير اليوم ، ولكنه في الغد يثار لنفسه ويعود غنياً كما كان والمساواة المطلقة على أي حال لا توجد الا في حالة الطبيعة وحالة الطبيعة محض تجريد . والبدوي يعيش في ظلام المساواة المتبادلة الى حد معين . ولكن مبادئه الخافضة هذه لا تشمل الانسانية جماء ، فالبدو لا يعدون أنفسهم اسمى من عبيدهم ومواليهم فحسب ، بل يعدون أنفسهم أرقى من العمال الذين يكسحون للحصول على القوت ، وأسمى من كل الناس كائناً من كانوا . وهم يزعمون أنهم خلقوا من طينة غير الطينة التي خلق منها سائر البشر . وعدم المساواة الطبيعية تسوق في طريقها المميزات الاجتماعية . فاذا كانت الثروة لا تزيد في أهمية البدوي ولا ترفع مكانته وتعلي جاهه فان الكرم وحسن الضيافة والشجاعة والشاعرية والفصاحة تزيد رفعة ومكانة . قال حاتم الطائي :

كذلك أمور الناس : راض دينية وسام الى فرع العلم متورد
فمنهم جواد قد تلفت حوله ومنهم لثيم فأنم الطرف أقود
وارستقراطيو الصحراء - أو ملوك العرب كما يسميهم عمر بن الخطاب -
هم الخطماء والشعراء وكل من يتحلى بفضائل البدو ؛ والسوفة هم الخساسة
الادنياء الذين لا يتصفون بها . ولم يعرف البدو الألقاب والامتيازات الا اذا
اعتبرنا قولهم « الكامل » لقبا وكانوا يدعون به كل من اقترنت فيه الملكية
الشعرية بالشجاعة والجود واجتمعت له معرفة الكتابة والتقدرة على السباحة
واحناء القوس ؛ مع ذلك فان شرف المولد - الذي اذا فهم كما ينبغي يلقي
مسئولية عالية ويربط اجيالا متعاقبة برباط متين - يوجد حتى بين البدو ، فقد
كانوا يقدسون ذكرى رجالهم

وسلالة الانجاد تحب وتحترم على شرط انهم - ولو لم يروا مواهب آبائهم
- يحفظون في قلوبهم الحب والاعجاب بالأعمال النبيلة والخصال الشريفة
والمواهب العالية . وكان يعد شريفا قبل الاسلام من كان سيدا في قبيلته والذي
أعتلى أبوه وجده الاعلى من قبل مسند الرياسة . ولا شيء أكثر مجازاة
للطبيعة من ذلك ، وما دام لقب (شيخ) لا يمنح الا للأعم فضلا والأنبه
ذكر أن المعقول ان تعد الفضائل البدوية متأصلة في الأسرة التي تنبع منها
رؤساء القبيلة مدة أربعة أجيال

ويدو القبيلة الواحدة كلهم اخوان . وهذا هو الاصطلاح الذي يتنادى
به أبناء القبيلة الواحدة المتقاربين في السن . وكان الرجل الكهل في تحدته
الى الشبان يدعوهم بأبناء أخيه . وكان البدوى ينحر آخر غنمه - اذا دعت
الضرورة - ليقدم الطعام لآخيه الذي برح به سعار الجوع وأصبح في حاجة
الى المساعدة . وهو ينكر أية اهانة يلحقها رجل من قبيلة اخرى بأخ له
ويعتبرها اهانة موجهة لشخصه ولا يقر قراره حتى يثار له

ومن الصعب اعطاء فكرة تامة واضحة عن هذه العصبية ، اعني اخلاص

العربي العميق غير المحدود لا بناء قبيلته ، وذلك التفاني المطلق في سبيل مصالح قومه الذين ولد فيهم وسيموت بينهم وتحقيق رفاهتهم ومجدهم وسؤددهم . وهذه العاطفة لا توازي عاطفة القومية في المعنى الذي نفهمه ، لأن هذا المعنى يظهر للبدوي المتقدم فائراً هامداً ، أما عاطفة البدوي فخيقة مستوحشة غلبة طاغية ، وفي نفس الوقت هي أول واجباته وأقدسها ، وبالاختصار هي ديانة الصحراء الصادقة !

والعربي يضحي كل شيء من أجل قبيلته . فهو من أجلها يخاطر بحياته في مجازفات مخوفة بالآخطار غير مأمونة العواقب يعمل فيها اليقين والحماسة الخوارق والمعجزات . ومن أجلها يحارب ويطاحن حتى يبحق جسمه ويمحى رسمه تحت اقدام العدو . وقد قال شاعر منهم أن صلة الانسان بقبيلته أمتن وأرسخ من صلته بزوجته . كذلك المعنى الذي نفهمه البدوي للحرية والمساواة والاخاء

ان هذه الخيرات تكفي العربي ولا يتطلب غيرها ولا يحلم به . وهو قانع بنصيبه راض بحظه . أما أوروبا فلا تقنع بنصيبها واذا قنعت به فلزمن قصير . أليست جهودنا المحمومة وظمأنا الى الاصلاحات السياسية والاجتماعية ومحاولاتنا المتقطعة لتحسين أحوالنا وترقيتها - أليست هي في الواقع علامات التعب والاجهاد ، واعتراف ضمني بالقاق الذي يفرض في جذور المجتمع الغربي ؟ وقد آمن الناس غلواً في الاشادة بفكرة التقدم سواء في ذلك اساتذة الجامعات والمشتغلون بالسياسة ، فهي الفكرة الجوهرية للنظم الاجتماعية الراهنة . ولكن هل كان الناس يكثرون من الثروة بلا انقطاع عن التغيير والتحسين والاصلاح لو كانت حالتهم سليمة صحيحة ولو كانت السعادة من نصيبهم ؟ واننا في انطلاقنا المتواصل وراء الرفاهة والرغد بلا فائدة ، وهدمنا اليوم ما بنيناه بالامس ، وانتقلنا من وهم الى وهم ومن خيبة أمل الى فشل ، فننهي باليأس من البشرية وتوديع الآمال فيها ، ونهتف في اوقات انكسارنا

واقباضنا بأن مصير الانسان ليس مرتبطاً بمآل الدول والحكومات ،
وتنزع نفوسنا المتألمة الى نعيم مجهول في دنيا غير منظورة . أما البدوي
فانه لا يشعر بشيء من ذلك ، ولا تساوره هذه الخطرات ، ولا
تطوف بنفسه تلك النزعات الغامضة الى مستقبل أزهر وأسمد . وروحه
المرحة الطروب المنبسطة غير المكترثة والتي تشبه السماء في صفائها لا تأخذ
بنصيبها من همومنا وأحزاننا ، ولا تقاسمنا آماننا الشبيهة بالظلال . ولكن
حياة الصحراء التي لا غرض لها تظهر لنا - ونحن الذين لا نبي الخيال بهفو
بطموحنا غير المحدود وزووعنا المضجر - غير محتملة لنشابهها الدائم واطرادها
المستمر . ونحن نؤثر احتياجاتنا وثورات نفوسنا المعتادة وهمومنا ومصاعبنا
ومشكلاتنا السياسية وحتى طلمات حضارتنا المتمخضة - تؤثر كل ذلك على
جميع المزايا التي يتمتع بها العربي في حياته الراكدة غير المتغيرة

وهناك فرق جوهري بين الأوروبي والعربي : فأن خيالننا من الخصوصية
بحيث لا يسمح لنا بالراحة الذهنية ، ومع ذلك فنحن نمزو تقدمنا الى تلك
الموهبة ونستمد منها تفرقنا النسبي . وحيث ينقص الخيال وتنقص ظلاله
يستحيل التقدم . ومن اجل تكميل حياتنا الاجتماعية وتنمية العلاقات المتبادلة
بين الناس فأن من اللازم الضروري أن نمثل للعقل صورة للمجتمع أقرب الى
الكمال من المجتمع الذي نعيش فيه . ولكن خيال العرب ضيق وجد ضئيل
وان كان المعروف عنهم غير ذلك . ودماؤهم احر من دماننا ، وميوهم أقوى
وأشد تأججاً ، ولكنهم في نفس الوقت أبعد الشعوب عن الابتكار . ولأجل
أن نعترف بهذه الحقيقة ونؤمن بها ما علينا الا أن نلقي نظرة واحدة الى
دينهم وأديبهم :

لقد كان لهم قبل اعتناقهم الاسلام آلهة من الاجرام السماوية ، ولكن لم
يكن لهم أساطير (ميثولوجيا) مثل الهنود واليونان وأهل اسكنديناquia ،
وليس لألهتهم تاريخ جغرافي ، ولم يحلم شاعر من شعرائهم بصوغه وتلقيقه .

والدين الذي دما اليه النبي (صلى الله عليه وسلم) أو بشر به نوع بسيط من الوحدةانية . وهو بلا مدافع أبسط الأديان الوضعية وأبعدها عن الابهام والغرابة ، وهو أكثر اتفاقاً مع العقل وأكثر نقاء وصفاء في نظر الذين يتجنبون الخوارق ، ويتحاشون النظام الطقسي ، وزخارف العبادة

وفي أدبهم تجدد نفس النقص في الابتكار ، والجنوح الى الواقعي المحسوس والوضعي . وقد أخرجت الشعوب الأخرى ملاحم يلعب فيها الفرق الطبيعي دوراً مهماً . وليس في الادب العربي ملحمة واحدة ، بل ولا قصيدة قصصية . ولما كان الشعر العربي مقصوراً على الشعر الوصفى والشعر الغنائي فإنه لم يحاول قط أن يصور الا الجانب الشعري في الحياة العملية . وشعراء العرب يصفون ما يبصرونه وما يشعرون به ولكنهم لا يبتكرون شيئاً واذا طارت في قريضهم شرارة من الخيال فإن تقادهم بدلا من أن يمدحهم يقولون عنهم انهم كذابون

والنزوع الى غير المحدود والطموح الى المثل الاعلى مجهول عند البدو . وللدقة وجمال التعبير وحسن الأداء - وهي جانب الصنعة في الشعر - الاهمية الكبرى في عيونهم . والحقيقة أن الابتكار في الادب العربي نادر الى حد أننا اذا لمخنا له أثرأ في بعض المقاطيع الشعرية التي يبدو فيها اثر الخيال أو في بعض القصص يمكننا أن نثق بأننا ازاء شيء مترجم وليس بالعربي الاصل . فقصص الف ليلة وليلة - التي أشاعت الايناس والبهجة في طفولتنا وكل ما فيها من حكايات السحر التي هي بنت خيال سري مرح - هي من أصل فارسي أو هندي . والاجزاء العربية الوحيدة في كل تلك المجموعة الكبيرة هي تصوير العادات والموارد المأخوذة من الحياة الواقعية

ولما استقر العرب في الاقاليم التي فتحوها بحد السيف حولوا التفاتهم الى العلوم فأظهروا نفس المعجز ونقص القوة المبتكرة الخلافة . وقد ترجوا وعلقوا على كتابات القدماء . وزادوا في ثروة بعض فروع العلم بصبرهم

وملاحظتهم الدقيقة^(١) . ولكنهم لم يكتشفوا اكتشافاً عظيماً ولنا مدينيين لهم بفكرة واحدة عظيمة مثمرة

كذلك اذن القروق البعيدة الغور الموجودة بيننا وبين العرب . وربما كان العرب اسمى منا أخلاقاً ، وأصدق عظمة نفس ؛ وربما كانوا أقوى منا شعوراً بجلال الانسان وكرامته ، ولكن لم تكن في ثرى نفوسهم بذور للتقدم والنمو مثلاً . وتوقاتهم الشديد للحرية الشخصية ونقص الغريزة السياسية في نفوسهم من القوة والأصل بحيث تجعلهم غير قابلين للقوانين الاجتماعية . ومع ذلك فقد قاموا بتلك المحاولة : فقد جذبهم من الصحراء نبي منهم ودفعهم الى غزو الدنيا ، فلاؤها بمفاخر أعمالهم . فلما أثروا من غنائم المشركين اقبالاً التي اكتسبوها تملأوا لذات الحياة ومناعها . وحشهم الاحتكاك بالشعوب التي أخضعوها لحكمهم على الاشتغال بالعلوم فوصلوا من الحضارة الى المستوى الذي سمحت به قدرتهم . ومع ذلك فانه مرت سنوات كثيرة بعد عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل أن يفقد العرب خصائصهم القومية

على ارضهم

﴿ جامعة اللغة العربية ﴾

قال الاستاذ الدكتور منصور فهمي في خطبة ألقاها في يافا وهو عائد الى مصر :
« اني سفير مصر اليكم ، ولكن لست سفيراً سياسياً بل هناك سفارة اعظم من هذه وهي سفارة الادب والعواطف المتبادلة بين البلدين . وان هناك سلطاناً عظيماً يصل هذه البلاد ويربطها برباط وثيق وهي اللغة العربية والصلة الاديبة ؛ فنحن نقرأ ما يكتب أدباؤكم وأنتم تقرأون ما يكتب أدباؤنا ، ويشعر شاعركم فنشعر ، ويشعر شاعرنا فنشعرون »

(١) لعل الكثيرين ممن يقرأون هذه الفقرات يتذكرون أمثالها مما كان يقوله العلماء في بلاد الخلفاء عن زملائهم من الالمانيين مدة الحرب الكونية ، فانهم ولا سيما الفرنسيين منهم ظلوا طوال مدة الحرب يقولون : ان الالمان ليسوا مبتكرين ، وانما تبذلهم فكرة بيتكرها الفرنسي أو غيره فيمحصونها وينفقون عليها ويرفونها بغيرهم وملاحظتهم الدقيقة ...
(الزهراء)